موقف الإسلام من التسامح مع المسلمين ومع غيرهم

د. عكرمة سعيد صبري

خطيب المسجد الأقصى المبارك

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين وعلى آله الطاهرين وصحابته الغر الميامين المحجّلين ومن تبعهم واقتفى أثرهم وسار على دربهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد :

فإن ديننا الإسلامي العظيم لم يضق ذرعاً بالأديان السابقة، بل أقرّ التعددية، وتعامل مع أتباع الديانات الأخرى بتسامح ومحبة بعيداً عن التعصب والتشنج والمعاداة كما يطلب مبدأ التسامح مع المسلمين.

فالمسامحة هي المساهلة من التسهيل. وسمح بمعنى أعطى، ويقال: في الحق مسمح أي متسع ولا مجال للباطل.

ويعتبر التسامح من القيم الرفيعة من العناصر الإنسانية الإيجابية التي تقوي الروابط بين الناس، وتشيع فيهم الألفة والمودة والمحبة والوئام.

ومن أبسط صور المسامحة: أن يُسقط الشخص حقه ويتنازل عنه تجاه غيره أو أن يطلب المعتدي المسامحة من المعتدى عليه، فيستجيب الأخير لطلبه، فالمسامح بعمله هذا قد بدّل الكراهية إلى المحبة، والعداوة إلى الألفة ، وهذا ما نمسه ونلحظه على أرض الواقع في مراسم الصلح التي تحصل بين العائلات حين ينشب بينها خلاف .

وأتناول في هذا البحث أربعة محاور وخاتمة مع الهوامش والمصادر والمراجع. والله ولي التوفيق.

د. عكرمة صبري

المحور الأول: حث الإسلام على التسامح

١- يدعو ديننا الإسلام العظيم إلى القيم الخلقية الرفيعة، والتي منها الصفح والعفو والمسامحة بشكل عام فيقول الله عز وجل: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر: ٨٥)، ويقول رب العالمين في آية أخرى: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التغابن: ١٤) وهناك عشرات الآيات الكريمة التي تدعو إلى ذلك.

ويتوهم البعض أن التسامح يأتي عن ضعف واستكانة واستسلام!! وهذا توهم خاطيء مغاير للحقيقة فالتسامح ينطلق من القوة والمقدرة، وكما هو معلوم ومعروف أن العفو يكون عند المقدرة، والله سبحانه وتعالى يقول الله عز وجل: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى:٤٠) ويقول عز وجل في آية أخرى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (الشورى: ٤٣)، فالذي يعفو ويصفح يكون قوي العزيمة ضابط الأعصاب كاتم الغيظ، ويقول رب العالمين في صفات المتقين: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، فالقرآن الكريم يشجع على العفو والصفح والمسامحة فيما بين الناس في عشرات الآيات الكريمة. ولا تخلو آية كريمة تتضمن عقوبة إلا وفيها حث على العفو والصفح والمسامحة.

المحور الثاني: المبدأ العام للتعامل مع غير المسلمين

لقد وضع القرآن الكريم المبدأ العام لتعامل المسلمين مع غيرهم، وذلك في ضوء قوله عز وجل: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: ٨-٩)، ويفهم من هاتين الآيتين الكريمتين أن أهل الكتاب بشكل خاص وغير المسلمين بشكل عام يقسمون على قسمين:

١- قسم مسالم والذين يعرفون بأهل الذمة.

٢- قسم معاد والذين يعرفون بالمحاربين.

والذين يعنينا هنا القسم الأول، وقد جرى الاصطلاح الإسلامي على إطلاق اسم (أهل الذمة) على المواطنين من غير المسلمين في الدولة الإسلامية بناءً على "عقد الذمة" وهو عقد بين الدولة الإسلامية من جهة وغير المسلمين من جهة أخرى؛ يتم بمقتضاه قيام الدولة بحمايتهم، أي أنهم يصبحون في عهد المسلمين وأمانهم.

والحكمة من مشروعية هذا العقد: أن يقف أهل الذمة على محاسن الإسلام عن طريق مخالطتهم واحتكاكهم بالمسلمين، وهذا مظهر من مظاهر التسامح في الإسلام مع المخالفين في العقيدة ولا بد من التأكيد بأن إطلاق "الذمة" على غير المسلمين ليس منقصة بحقهم ولا امتهان ولا احتقار لهم، بل هو تكريم لهم وتشريف، هذا وقد نعم أهل الذمة في ظل الدولة

الإسلامية بحقوق غير موجودة في أي نظام وضعي دنيوي، وقد انفرد ديننا الإسلامي العظيم عن سائر الأديان والأنظمة والقوانين بقدرته على ترسيخ مبدأ التعددية في المجتمع الإسلامي، ويعجز أي نظام أخر عن توفير الحقوق للرعايا المخالفين له في الدين.

وهذا وقد توالت وصايا الرسول الأكرم ﷺ بأهل الذمة، وتكررت أوامره بالإحسان إليهم وحفظ حقوقهم والبر بهم، كما تكررت نواهيه عن إيذائهم وظلمهم والاعتداء على حرياتهم الدينية فيقول ﷺ ((ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)) (١)وقال ﷺ في حديث نبوي شريف آخر: ((إلا من قتل نفساً معاهدة له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يزم رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً)) (٢)وقال ﷺ في حديث ثالث: ((من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة))(٣).

وأوصى رسولنا الأكرم ﷺ بأقباط مصر خيراً بقوله: ((إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً))(٤)والتزم الخلفاء الراشدون وولاة الأمر والقادة الإسلاميون بالهدي النبوي عاملوا أهل الذمة معاملة

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي عن صفوان بن سليم عن عدد من أبناء الصحابة عن آبائهم.

(٢) رواه ابن ماجه والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، عن الصحابي الجليل أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي والسيوطي عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بسند حسن.

(٤) رواه أحمد عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

حسنة وأحاطوهم بالرعاية والعناية.

كما تكلفت الدولة الإسلامية الإنفاق عليهم وتأمينهم عند العجز والفقر والعوز، ويظهر ذلك جلياً بما كتبه القائد الصحابي الجليل خالد بن الوليد رضي الله عنه في صلح الحيرة- في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه -فقد جاء في نص الصلح "وجعلت لهم أيما شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ؛ طرحت جزيته، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله؛ ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام" (١).

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أماتهم أحراراً)، وفي رواية: (بم استعبدتم الناس...) قال ذلك حين اعتدى ابن عمرو بن العاص والي مصر على الفتى القبطي، ثم قام أمير المؤمنين بمعاقبة المعتدي، كما بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قمة السماحة والرأفة مع أهل الذمة حيث أنفق على مساكين أهل الذمة من بيت المال؛ بالرغم من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد أصيب بطعنة من رجل من أهل الذمة- وهو أبو لؤلؤة المجوسي- ؛ إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يوصي الخليفة الذي سيأتي من بعده، وهو على فراش الموت بقوله: (أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم) (٢).

كما سار على هذا النهج الخلفاء الأمويون والعباسيون، فقد تولى أهل الذمة عدداً من المناصب الإدارية والمالية؛ بالإضافة إلى حضور المجالس

(١) كتاب الخراج لأبي يوسف صفحة ١٥٥- ,١٥٦

(٢) كتاب إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني جزء ٥ صفحة ١٦٢ .

والندوات التي كان الخلفاء يعقدونها للعلماء والشعراء بما فيهم النصارى واليهود بمختلف التخصصات، ففي عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان الأموي أسندت الإدارة المالية إلى أسرة مسيحية ظلت تتوارث فيما بينها تلك الإدارة، وهي أسرة سرجون بن منصور الرومي(١).

المحور الثالث: الحرية الدينية والتعبدية

لقد منح ديننا الإسلامي العظيم لأصحاب الديانات الأخرى حرية العقيدة والديانة والعبادة، وقد انفرد الإسلام بهذه الميزات، وتقوم هذه الحرية على الأسس الآتية:

١- أن الأنبياء والمرسلين جميعهم إخوة لا تفاضل بينهم في النبوة والوحي، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦)، وفي آية أخرى: ﴿لا نفرق بين أحدٍ من رسله﴾ (البقرة: ٢٨٥)، ويقول في آية ثالثة: ﴿وَالَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (النساء: ١٥٢: ٨٤).

٢- لا يجوز الإكراه على العقيدة، كما لا يجوز إكراه أحد على ترك دينه، بل لا بد من الإقناع والرضا، والله عز وجل يقول: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ويقول في آية أخرى بصيغة الاستفهام الإنكاري: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا

(١) تاريخ خليفة بن خياط جزء ١ صفحة ٢٧٦.

أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

٣- أن تكون المناقشة والمجادلة مع أصحاب الديانات الأخرى بأسلوب حسن وبالحكمة فيقول رب العالمين ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤)، ويقول في آية أخرى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، ويقول في آية ثالثة: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

٤- أن أماكن العبادة لأصحاب الديانات الأخرى محترمة ومصانة ولا يجوز الاعتداء عليها، والله عز وجل يقول: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ (الحج: ٤٠)، وترك الحرية لهم بممارسة شعائرهم الدينية وعباداتهم وصولاتهم في المجتمع الإسلامي فلا تهدم لهم كنيسة ولا يكسر لهم صليب، حيث إن ديننا الإسلامي العظيم يؤمن بالتعددية في المجتمع الإسلامي، فقد ثبت أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين دخل بيت المقدس (١٥هـ/ ٦٣٥م) تعهدوا لمواطنيها النصارى بإبقاء خمس عشرة كنيسة مع الحرية التامة في ممارسة عباداتهم(١)، وكتب تاريخ الحضارة حافلة بذلك للتأكيد على التسامح الإسلامي.

٥- ترك الحرية لهم فيما أباحت لهم أديانهم من الطعام والشراب، وإعطائهم الحرية في قضايا الأحوال الشخصية والعائلية من الزواج والطلاق

(١) تاريخ دمشق الكبير، لابن عساكر جزء ١ صفحة ٢٤١ .

والنفقات والميراث وغيرها، وصيانة حقوقهم وحفظ كرامتهم، فقد ثبت أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمر بإعطاء أهل الذمة، ممن لا يستطيعون العمل، مرتباً شهرياً من بيت المال وأسقط عنهم الجزية كما ثبت عنه أنه سمى الجزية التي كان يستوفيها من نصارى والعرب بالصدقة(١) .

المحور الرابع : مواقف حضارية تدل على التسامح

هناك عشرات المواقف الحضارية والتي تدل على التسامح في الإسلام، وذلك في ضوء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والأقوال المأثورة والتي تحث على العفو والصفح والرفق واللين والمسامحة، وتفّر من الغلظة والعنف، أذكر باقة منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩) وهذه الآية الكريمة توضح الأسلوب القديم للدعوة إلى الله، والخطاب في هذه الآية الكريمة موجه للرسول ﷺ ويشمل جميع أتباعه.

٢- قال عز وجل موجهاً خطابه لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٣-٤٤)، وقد قال أحد الصالحين تعقيباً على هاتين الآيتين: يا رب، إن كان هذا

(١) الخراج، لأبي يوسف صفحة ١٣٦ .

قولك لفرعون الذي طغى وبغى وجمع وادعى وقال: أنا ربكم الأعلى!! فماذا تقول: لمن يسبّحونك بالغداة والآصال؟

٣- العفو العام الذي أصدره رسولنا الأكرم محمد ﷺ يوم الفتح الأعظم ٨هـ/ ٦٢٨م بحق أهل مكة وسامحهم رغم أنهم تآمروا عليه وآذوه قائلاً لهم: ((اذهبوا فأنتم الطلقاء)) (١).

٤- قال الرسول ﷺ :((من يحرم الرفق يحرم الخير كله)) (٢).

٥- قال رسول الله ﷺ :((إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شأنه)) (٣).

٦- قال رسول الله ﷺ : ((إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسدّدوا وقاربوا وبشروا)) (٤).

٧- نقل أن أحد المسلمين كان يفدُ إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبعد مدة افتقده عمر فسأل عنه فقالوا له: يا أمير المؤمنين إنه يتابع شراب الخمر، فكتب له رسالة قال فيها: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب قابل التوب وشديد ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، ثم قال عمر لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقبل بقلبه ويتوب الله عليه.

فلما استلم الرجل الرسالة أخذ يقرؤها ويردد عباراتها ويقول: قد حذرني

(١) سيرة ابن هشام ج٢ صفحة ٢٧٤ وتاريخ الطبري ج٣ صفحة ٦١ .
(٢) رواه مسلم عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٣) رواه مسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
(٤) رواه البخاري والنسائي عن الصحابي الجليل أبي هريرة.

الله عقوبته ووعدني أن يغفر لي، فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع، فأحسن النزع- أي تاب فأحسن التوبة- .

فلما علم عمر بتوبة الرجل قال: (هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخاً لكم زلّ زلة فسددوه ووثقوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه)، وهذا أسلوب من أساليب الهداية والمسامحة، فلم يحاسبه على فعلته؛ بل أعطاه فرصة للتراجع والتوبة وفتح صفحة جديدة.

٨- ورد عن الشريف الرضي أن غلامه سكب عليه الماء من قبيل الخطأ ، فظهر على الشريف الرضي آثار الغضب وعدم الرضا، فاستدل الغلام بالآية الكريمة: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، فقال الشريف الرضي: كظمت غيظي، فقَالَ الغلام ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فقال: عفوت عنك، ثم قال الغلام: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فقال: اذهبَ، فأنت حر، أي حرره من العبودية.

الخاتمة

خلال المقدمة والمحاور الأربعة ألقيت الضوء بإيجاز بشأن موقف الإسلام من التسامح مع المسلمين ومع غير المسلمين على حد سواء، وذلك لنؤكد أن ديننا الإسلامي العظيم هو دين حضاري إنساني شمولي عالمي، هو دين الرأفة والرحمة والتسامح، فالمعاملة الحسنة في الإسلام ليس نظرية خيالية، ولا قيمة هوائية، كما أنه ليس حبراً على ورق، وإنما هو دين عملي واقعي إيجابي، فتطبيق فكرة العدالة والتسامح في أي مجتمع تعطي أكلها من زرع الثقة والمحبة والطمأنينة بين أفراده وجماعاته في كل زمان ومكان.

وينبغي أن نغرس هذه القيم الرائدة الرفيعة في نفوس أبنائنا فلذات أكبادنا، كما ينبغي أن ننقل ذلك عملياً إلى آفاق العالم، فلم يدخل الناس في دين الله أفواجاً إلا بهذه القيم. وعلى العلماء العاملين والدعاة المخلصين أن يبذلوا الجهد في سبيل إبراز هذه القيم للعالم أجمع.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- تفسير القرطبي.

٣- تفسير الكشاف للزمخشري.

٤- تفسير المراغي.

٥-صحيح البخاري.

٦- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني.

٧- صحيح مسلم.

٨- سنن أبي داود.

٩-مسند الإمام أحمد.

١٠- الخراج لأبي يوسف.

١١- سيرة ابن هشام.

١٢-تاريخ الطبري.

١٣-تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر.

١٤-تاريخ خليفة بن خياط.

١٥- النظم الإسلامية للدكتور صبحي الصالح.

١٦- الرسالة الخالدة للأستاذ عبد الرحمن عزام.

١٧- روح الدين الإسلامي للأستاذ عفيف طبارة.

١٨-التربية في الإسلام للدكتور الشيخ عكرمة صبري.

١٩- اليمين في القضاء الإسلامي للدكتور الشيخ عكرمة صبري.

٢٠- قصة الحضارة للمستشرق وول ديورانت.

٢١-الدعوة إلى الإسلام للمستشرق توماس أرنولد.